Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 8, June. 2017

Published on Web 01/6/2017

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الثاني ـ العدد الثامن، يونيو 2017م

المرأة في شعر علي الفزاني

د. أحمد محمد الجرم*

مقدمة البحث:

منذ سنوات وأنا أقرأ للشاعر علي الفزاني، وكنت معجبا أيما إعجاب بثقافته الواسعة وتجربته الشعرية الرائدة والمتميزة، البسيطة في المنظور العالمي والعظيمة في المنظور المحلي، وهو شاعر خبر الحياة مُرّها قبل حلوها، بل عاش مهموما بقضايا وطنه وقضايا أمته وقضايا الإنسان في كل مكان.

هذه الحياة التي لم تكن أسعد حالا في أي وقت من الأوقات، حيث يتحدث شاعرنا عن تجربته في الحياة بقوله: "كانت قاسية إلى أبعد حد، وطفولتي لم تكن جيدة بأية حال: طفولة حرمان، وفقر، ورزايا، عبر عالم مليء بالتعفن والكراهية؛ وعندما حان الوقت تنفستُ عبر قصائدي بكلمات أغرقها التشاؤم والحزن".[1]

شاعر هذه حالُه لا يمكن أن يعير للمرأة أدنى اهتمام، ولكن من خلال تصفحي لدواوينه من حين إلى آخر؛ علمت أنه يتحدث عن المرأة في أغلب قصائده، ولكن أية امرأة؟! هل هي الأنثى الحقيقية؟ أم يرمز بها إلى شيء آخر؟

في الحقيقة أنني لم أعط هذا الموضوع كبير اهتمام في السابق، ولكن بعد دراسة مادة الحب في الشعر العربي من ضمن متطلبات درجة الدكتوراه، حفزتني هذه المادة لدراسة شخصية المرأة عند شاعر تذكرت أن له إشارات متكررة وصورًا مبتكرة عن المرأة؛ وإذا بي أعيد قراءة ديوان أعماله الشعرية الكاملة، وحاولت جهدي أن أتعرف على رأيه في المرأة من خلال نظارته القاتمة، مع إيراد نماذج من شعره المتضمنة لآرائه، واضعا نصب عيني أمرين مهمين لا يمكن إغفالهما:

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة مصراتة.

الأول: إن بتر النصوص من القصيدة يعد قتلا لها، حيث ينبغي أن تقرأ القصيدة كلا متكاملا، ولكن مساحة البحث لا تسمح بهذا.

الثاني: إنني لم أدرس القصائد دراسة فاحصة متكاملة، ولكني اعتمدت في دراستي هذه المنهج الاستقرائي الانطباعي، للسبب ذاته؛ ولتكوين فكرة شاملة عن الشاعر ونظرته إلى المرأة.

وقد قسمت هذا العمل إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، تناولت في المقدمة أهمية البحث والمنهج الذي اتبعته في الدراسة وأهم الصعوبات التي واجهت البحث؛ كما خصصت الفصل الأول للتعريف بالشاعر.

وأما الفصل الثاني فخصصته لرأي الشاعر في المرأة، فوضعته في ثلاثة مباحث؛ الأول: رأيه في المرأة الشرقية العفيفة، والثاني: رأيه في المرأة الغربية الضحية، والثالث: رأيه في المرأة الغربية المحتالة.

وتناولت في الفصل الثالث موقف الشاعر من المرأة من خلال لغته المباشرة والرمزية؛ وأخيرا كانت الخاتمة التي احتوت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدراسات المتعلقة بالأدب الليبي تعاني من ندرة في المصادر وشح في المراجع، وهي في مجملها لا تعدو أن تكون دواوين شعرية تحوي مقدمات بسيطة أو بعض التعليقات في الصحف والمجلات المحلية.

ومع ذلك فقد كتبت مؤخرا بعض الرسائل والأطروحات في هذا المجال ولكن قلة النشر أو صعوبة الحصول عليها حال دون الاستفادة منها متمنيا أن يحظى هذا المجال بدراسات أعمق وأشمل على أيدي أبنائنا الباحثين.

الفصل الأول: التعريف بالشاعر:

الشاعر هو علي عبد السلام الفزاني، شاعر ليبي معاصر، ينحدر من عائلة فقيرة هاجرت من موطنها الأصلي في جنوب البلاد إلى بلدة صرمان على الساحل الليبي، الواقعة غرب مدينة طرابلس حيث ولد فيها سنة 1935م أو سنة 1938م.[2]

نشأ نشأة دينية خالصة؛ حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وتلقى بعض علوم الفقه والسنة على يد والده؛ مما كان له عظيم الأثر في حياته.

انتقل إلى مدينة بنغازي عام 1947م، وانخرط في الأعمال المهنية الصحية، وتخرج في معهد التمريض سنة 1953م، وفور تخرجه درس أصول اللغة العربية وآدابها في المعهد الديني؛ مما أسهم في صقل مواهبه اللغوية والأدبية، ثم احترف الصيدلة حتى سنة 1968م، ثم التحق بالمعهد العالي بجامعة الاسكندرية، وحصل على إجازة في التوعية الصحية.

أكمل دراسته حتى السنة الثانية ثانوي طالباً منزلياً، وفي الوقت نفسه بدأ ينشر بعض قصائده، وقد نشر أولى قصائده في جريدة برقة، ثم احتضنه الشاعر عبد السلام قادربوه فنشر له قصة وقصيدتين، وعلى يديه أتقن علم العروض.[3]

·توقف عن النشر حتى سنة 1965م ثم بدأ إنتاجه يخرج في الصحف نثراً وشعراً على الطريقتين التقليدية والحديثة.[4]

عمل محررا أدبيا بأغلب الصحف الليبية، ومنتجا بالإذاعة، كما سافر كثيرا، وزار عددا من دول العالم الكبرى؛ مما أكسبه ثقافة واسعة، كما كُرِّم في عيد المعلم سنة 1970م.

كُتبت عنه دراسات مختلفة لكبار النقاد والكتاب والشعراء العرب في الدوريات والمجلات المتخصصة، كما صدرت دواوينه تباعا من سنة 1966م حتى آخر أيامه حيث كان يواصل نشر إنتاجه عبر الصحف والمجلات المحلية والعربية.

توفي في بيرن بسويسرا يوم 2000/9/27م ودفن في مدينة بنغازي.[5]

صدرت له الأعمال الشعرية الآتية:

1. ديوان رحلة الضياع طبعات 1966م و 1973.
2. أشعار الحزن المضيئة 1967م
3. قصائد مهاجرة 1969م
4. الموت فوق المئذنة 1973م
5. مواسم الفقدان 1977م
6. الطوفان آت 1981م
7. الأعمال الشعرية الكاملة في أربع طبعات: 1966م، 1972م، 1975، 1983م.
8. دمي يقاتلني الآن 1984م.

وله دراسات أخرى:

1. ربع قرن بين الأطباء.
2. الأبعاد الأخرى.
3. عالم المبدعين.

الفصل الثاني: آراء الشاعر في المرأة من خلال شعره:

تمهيد: تختلف نظرة الناس إلى المرأة باختلاف العصور، واختلاف البيئات، وكذلك باختلاف الأفراد ومشاربهم ومميزاتهم؛ فنظرة الإنسان العادي تختلف عن نظرة الفنان الشاعر، فالأول يرى فيها سكنا يأوي إليه، فيجد عنده العطف والرعاية، والحنان والرقة، أو يجد النقمة والسخط، والخداع والرياء؛ أما الفنان فيجد فيها فوق كل ذلك وسيلة من وسائل الإلهام والإبداع الفني ... وقلما تخلو حياة فنان أو شاعر أو موسيقي من امرأة

تغدق عليه ألوانا من الفتنة والسحر، وترضعه بوحيها وإلهامها؛ ولهذا فالتشبيب بالمرأة لا يعظم إلا في العصور التي تشيع فيها الرغادة، وتعم فيها الرفاهية، ويكثر فيها الترف.(6)

وقلما نجد شعرا رفيعا مجردا من ذكر المرأة، فالمرأة قصيدة الدهر، وأغرودة الحياة، ومصدر الإلهام، حتى ليراها بعض الشعراء النبع الذي يستقي منه فنّه، ويلهب شاعريته، من هنا نرى أن المرأة خمر الشعر ورحيقه، يرتشفه العاشق فتأخذه نشوة لا يفيق منها إلا وفي فمه لحن سماوي، فهي الوحي الذي يلقي في خلد الشعراء صورًا منتزعة من رؤى الأحلام.(7)

ومع أن بعض النقاد والأدباء وصف المرأة بأنها شيطان شعر "فإن العديد من الشعراء يرون المرأة شيطانا فعلا إذا تحولت إلى كتلة من الأحقاد والشرور، وسعت لنشر السموم والرذيلة، فتصير شيطان شر لا شيطان شعر".(8)

إنّ نظرة الشاعر علي الفزاني إلى المرأة لا تعدو أن تكون بلورةً للعصر الذي نشأ فيه، والذي أسهم في تكوينه النفسي والديني، وأثر ذلك في دراسته، ومن ثم فلسفته في الحياة، حيث كانت مكانة المرأة في غاية ما يرجى لها من الكرامة والعفة والحصانة، كما أن الغزل الذي شاع في تلك الفترة – على الرغم من قلته – اتسم بطابع الدلالة على النزاهة، والإخلاص في الحب، وصدق العاطفة.

ولكن نتيجة تكوينه النفسي والديني ورؤيته لواقع المرأة المزري في الكثير من الدول الغربية بسبب رحلاته الكثيرة، كل ذلك شكّل لديه رؤية بأن المرأة الغربية امرأة مهانة ذليلة، تسعى لكسب المال، وتحصيل عيشها بطرق غير مشروعة، عندما عجزت عن الحصول عليه بالطرق المشروعة.

ويؤكد هذا الرأي خليفة التليسي بقوله: "أجمع الباحثون على أن العصر الجاهلي أساء معاملة المرأة، وعندي أن المرأة لم تعرف عصرا اشتد في ظلمها كهذا العصر الذي استبحر فيه العمران، واتسعت الحضارة".(9)

ولذا تعرض الشاعر علي الفزاني إلى هذه الحياة التي شاعت فيها المفاسد والشرور وهو من أخذ نفسه بمقاومتها ما وجد إلى ذلك سبيلا.

ومع ذلك فهو يعيش في غربة وكآبة شديدتين، خلقا ازدواجا في شخصيته بين احترامه للمرأة العفيفة الشريفة من جانب، وبين انتقاده للمرأة العاهر الوضيعة من جانب آخر.

ونظرًا لرهافة إحساس الشاعر؛ فإن للمرأة تأثيرا كبيرا عليه، يظهر في شعره حيث يتلذذ بذكرها، ويصف محاسنها ومفاتنها، ويطلاق بعض الصفات الأنثوية على أمور حياتية أخرى كما سنرى.

المبحث الأول: المرأة الشرقية العفيفة:

فبنظرته للمرأة العفيفة الشريفة يمجد المرأة المتمثلة في الزوجة الفاضلة، التي تقف مع زوجها في المحن والنوائب، المرأة التي تحمل في جنبيها الحنان، تنجب الأبناء، تملأ الدنيا سعادة وحبورا، فهي زوجة وفيّة، وأم رؤوم تحمل في أحشائها الحياة، وترضع فلذات كبدها معنى البطولة والشهّامة، الذي يرى فيه والده استمرارًا لحياته وإحياءً لذكره، وفقده يشعره بالنهاية:

يا زوجتي
قد مات طفلنا !!
قد مات بعضنا !!
يا زوجتي: لا شيء، غير دمعنا الغزير !!(10)

وهي المرأة العفيفة الشريفة بما تحمله من جمال شرقي، وهي الجارة والحبيبة، فهي تحمل ذكريات الماضي وجماله وبراءته، وتلك المغاني التي تحفظ ودّ ذلك العهد، وأيام الطفولة والصبا:

أحبّ وجه جارتي التي لها ظفائر القمر
وكانت الطفولة
مراتع حبيبة جميلة.(11)

تلك المرأة الكريمة التي تنجب الأبطال رغم الفقر والذل والمهانة، ولكن في جوفها تحمل العنفوان والعزة والكرامة، ترضعها لفلذات الأجيال القادمة، الذين يذودون عن الوطن والعرض، وتخلق من هذه المصائب أسودا لها صولات وجولات، تتخذ قرارها بنفسها، وتثبت وجودها فوق وطنها دون أن تتخلى عنه:

ستنتهي ويولد الرجال
ستنتهي وتحمل النساء ألف غاضب هصور
سيولدون فوق هذي الأرصفة
الجوع والعذاب والعراء معرفة
سيهزؤون بالقرار والدوار
سيسخرون من أسطورة الفرار.(12)

ويعود إلى ذكر المرأة الأم للحصول على دعواتها في أوقات الشدة، أو لتحكي بعض الحكايات والذكريات، أو لتغني لطفلها لينام غير آبهة بما يدور حولها من اجتياح، تواجه قدرها بصبر وأناة، الصمت شعارها، والدعاء نشيدها، والصلاة أملها، وبهذه الروافد تربي أشبالها، بحيث يستمدون قوتهم من حكمتها:

قابع في موعد التاريخ جُرحي
صامتا والريح تذرو
صلواتي، صرخاتي، فلمن يا أمُّ أشدو
وأتى الطوفان يجتاح المرايا.(13)

كما أن الوطن لا تعوزه النساء الجميلات ذوات الخصور والصدور، ربات العيون الجميلة والقدود، جمال عربي أخّاذ ولكن مسحة حزن توشح هذا الجمال، فهي ليست دمية يقتنيها من يدفع ثمنها، إنها لا تقدر بمال، ومهرها هو الاستجابة لنداءاتها الذليلة، فهي تمثل العفاف والطهر والقداسة، ولكن العديد من الناس لا يلتفتون إلى هذا الجمال الفاتن، والحسن الزاهي، منبهرين بأضواء الحضارة التي تحمل في طياتها الدعارة والقذارة:

ماريا .. في وطني
ألف جميلة
ألف خصر، ألف عين
في مآقيها نداءات ذليلة
(ماريا) في وطني، في الشرق حُسن
عبثا أَلْقَى يوما مثيله
فبرود الثلج في عينيك، في شرقي حرارة
ووميض الجنس في ردفيك، في شرقي شرارة
في بلادي .. قدَّس الناس الطهارة
والبكارة
ربما قد عشقوها في مواخير الحضارة
(ماريا)

زهرة أنت
ولكن .. أنت في أنفي
قذارة.[14]

ومع ذلك فمن واجب الشرقي تجاه المرأة التي يحبها لوفائها، ويقدسها لجمالها، أن يحميها ويحافظ عليها، ويتحمل المشاق في سبيل ذلك؛ لأن المرأة تعشق الفارس الشجاع المدافع عن العرض والشرف والوطن، فهو المقاتل على صهوات الجياد، وهو المتباري في كسب الوُدِّ والحبِّ والجمال:

يا سادتي .. أنا أُقدِّس الجمال في النساء
وأعبد النهود في النساء
وأحمل السلاح كي أصون عرضهن
وأركب الأخطار كي أنال حبهن
وأكتب الأشعار كي أنال ودهن
يا سادتي .. لا تمزجوا الجمال بالمحن.[15]

وهو يدافع عن وطنه بالسلاح، وبالكلمة المقاتلة إذا ظهر الفساد في قريته؛ ولذا يتوجب عليه أن ينتقدها، ويندد بما آل إليه حالها:

حارتنا .. فتيتها من الأوغاد
والعاهرات خلفهن شاعر قواد
يبيع لحمه وشِعره بلا مزاد.[16]

وتتحول الأم الحنون الشريفة إلى بغي، نتيجة الأوضاع الاجتماعية السيئة التي تعانيها بسبب الفقر والتشرد واليتم:

رُبَّ .. قد أمسى اليتامى ملء هذي الطرقات
كذباب، كنِمـالٍ ما لها مأوى، ومات
كل عطف في الحنايا في صدور الأمهات
هنّ قد صرن بغايـا وهجرن الفلذات.[17]

بل كلما زاد المجتمع إمعانا في صلفه تجاه هذه المرأة، وكلما ازدادت حالتها سوءا كلما أمعنت في الانتقام، غير آبهة بشيء مستخدمة في ذلك كل الوسائل:

عودي لطفلك المعذب الأمومة
عودي، دعيني أكتب الجريمة
عودي أيا أثيمة
من ألف عام تحضنين هذه الجريمة
شرقية، داعرة، كاذبة، محتقرة
في كل لحظة تعد للرجال مجزرة.[18]

المبحث الثاني: المرأة الغربية الضحية:

وفي المقابل نجد المرأة الوضيعة (العاهرة) التي أفرزها المجتمع بدعوى المدنية والتحضر، أو بسبب الضغوط الاجتماعية والاقتصادية دون أن تجد من يمدُّ لها يد العون والمساعدة، هذه الأسباب وغيرها جعلتها تسقط في مستنقع الرذيلة، وتبقى هي الضحية:

ماريا ..
عاهرة ما عرفت إلا مواخير المدينة
وضباب الليل إذ يغشى ذراها

وهي طفلة

وحزينة !!

ولقيطة !!

حدثتني ذات يوم عن صباها

في الملاجئ

في الكنائس

عن رجال، عن نساء وشيوخ علّموها

كيف ترقص

ثم ترقص

في المقابع

في الشوارع

تتعرى

تهب الحُبّ رخيصا

لذئاب مثل ليل الغرب .. تعطي

بسمات زائفات

من هواها، وأساها

لم جئنا؟ سألتني

نحن عشّاق البغايا

نحن؟ .. أمْ هُنَّ البغايا؟

(ماريا) .. الكلّ بغايا

وضحايا.[19]

لذا نراه يبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذا الانحراف والتردي في عالم الرذيلة، وصوّرها في شكل قصة ذات حوار دار بينه وبين رفيقته:

رفيقتي في جزر الضباب .. سيِّدة
أنفاسها تضج بالدخان والكحول
وتلبس الحُليَّ والمِخْمَل المزركش الثمين
وتجرع الكؤوس في نَهَم
وترقص (التويست)، في مقابع العراة
وتركب الجياد والقطار والرجال
وتلعب القمار مثل أي مدمنة.[20]

ويسرد أسباب هذا التردي والسقوط، وكأنّ رفيقته تحدثه عن نفسها:

رفيقتي حكت، بكت، وترثرت إلى الصباح
تقول لي:
الزوج مات غاله القناص في عدن
والعاشق الوحيد مات في معارك القتال
لكن بَيْدَر المطّاط ظلّ في مزارع الجنوب.[21]

ولكن يرد متسائلا: هل هذا التصرف يجدي أو يغيِّر من أمرها شيئا؟!

الشمس أغربت، ولا أرى هنا، سوى الضباب
والعُرْيُ عبر الأقْبِية
والرقص فوق هذي الأرصفة
والداعر الذي يغازل الأشباح في الطريق

لن يُرجع الأمجاد يا سيدتي.[22]

بل إنها نهاية الدّعارة، ستُسْلِمها إلى دموع النّدم، بعد أن تفقد أعزّ ما لديها، وتفعل السنين فعلها يوم لا ينفع النّدم، ولا تسعفها صروف الدّهر:

نزقت
ضلّت
وعادت بعض أنثى أو بقية
وعلى درب المحال
سوف تأتين طيوفا وخيال
وردة صفراء تَذْوي في أعاصير الليالي
... ...
عبثا ما تسكبين
من دموعٍ، ندَمُ الأيام فيها، وتباريح السنين
عبثا ما تودعين
... ...
ستعودين بلا جدوى إليه
نغمة مبحوحة الأوتار تبكي، وأغاريد شقية
ستعودين إليه
في خريف العمر .. آه
ألف آهٍ .. يا شقية.[23]

وهذا يجرّه إلى أن يصف قصة لذة جنسية عابرة مع امرأة أوربية ذات شعر أشقر:

شَعرها شلال نجم وشراعي لا يبين
مرفأ ألقيتُ فيه كل أعباء السنين
أيها الدفء المسجَّى عبر تلك الراحتين
أنت أيقظت حنيني في رماد الأربعين
هذه الأحضان ملأى رغم كثبان الغضون
وفراغي .. همجي مرهِق، جمّ الشجون.[24]

ومع كل هذا فهو ينهمك في اللذات الجنسية، ويتعلق بالمرأة الغربية، لا لحبها، وإنما لاعتقاده بأنها الأمل الذي يحاول أن يتعلق به لتخرجه من غربته:

لو عدتُ يا صديقة المجون والملاهي
للأسى يا جميلتي
لقلت أنني أحبها .. أحبها إلهي
بالرغم من مجونها
وأن اسمها طبعته، طبعته على شفاهي
لو عدتُ مرة أنا
إلى متاهة الضياع
فعلتُ ما فعلته
أرقت فوق نهدها
كآبتي، شقاوتي
بدّدت فوق صدرها
صراعي
غمست في عيونها الزرقاء

روائع الحروف مِن يَراعِي
رقدت في ضفاف شعرها
كمتعب ممزّق الشراع.[25]

بل إن تعلقه بمثل هذه المرأة جعله يحسُّ بأنها ربما تبعد عنه شبح اليأس:

أكل هذا المطر؟
ما أينعت للطفل حبة من قمح
جاريتي فلتعطني ثمالة من كأس
فإن وجه اليأس
يظل شاحبا.[26]

كان يسعى من وراء هذه العلاقات أن تضيع نفسه، ليتخلص من غربته، ولكن بوسائل غير مجدية:

كان حلمي أن أضيعا
بين أوكار السكارى
بين ضحكات العواهر.[27]

ومع ذلك فإن التي كان يمنِّيها بالحب والغرام، إنما كان يقصد بذلك اللهو والمتعة:

يا حبيبي .. لا تصدق
أنني كنت أحبك
فأنا كنت أُرَائي
وغرامي كان لهوًا بشبابك

وعذابك.[28]

المبحث الثالث: المرأة الغربية المحتالة:

وبالمقابل نجده من خلال هذه القصيدة التي جعل عنوانها (النهر والجراد) "يخاطب فيها الشاعر عاهرة غربية، جاءت تشتري شقاءه، لتمنحه الحب الكاذب مقابل نقوده":[29]

أنا هنا .. أبعثر النقود كالغنائم
لألتقي بامرأة .. أي امرأة
تقول لي: أحبك
تقولها كاذبة
... ...
لتشبعي غرائزي
كاذبة !!
لتفرغي خزائني .. نعم، نعم .. يا عاهرة.[30]

كما أن المرأة والجنس في العالم الغربي يمارسه الغرب لاستقطاب الإنسان في العالم الثالث، وجذبه إلى حياة الدعارة؛ لسلب أمواله من ناحية، ولإبعاده عن قضايا وطنه وهموم أمته:

لو أنا أزني بحرفي وسيوفي
لأتوني في فراشي بصبية
ومضى الليل شرابا، وعناقا
وانتهى أمر القضية.[31]

بل الجنس صار – في نظره – يحكم الكون بحيث يمكن أن يبيع الإنسان أرضه وكل ما يملك مقابل عَرَض زائل:

الشرق في ملامحي حكاية قديمة
وشهر زاد، والخليفة الرشيد في دمي، بلا حريم
من يشتري حرارتي سيدتي
أتشترين؟
أفريقيا بضجعة، بقبلة
أتشترين؟ (32)

كما أن التبرج ولبس الحلي وإظهار المفاتن يزيد الرغبة الجنسية؛ فعلى الرغم من أن الرجال يقدمون هذه الحلي للمرأة، إلا أنها جعلتهم ينقادون لها كأنهم أساور في معصميها، تحركهم كيفما شاءت وفق إرادتها:

هم الحلي .. هم الأساور التي في معصمك
ما جمّعوا، أو يجمعوا، من أجل زيف بسمتك.(33)

وبينما يتطلع الشرقيون للعيون الزرقاء الأوربية، ويعجبون بها أيّما إعجاب، تصاحبها رغبة جامحة تجعلهم ينفقون في سبيلها ثروات بلادهم:

في الغرب مولدك
في الشرق لقمتك
من أجلها .. عيونك الزرقاء نمنحك
أموالنا .. بترولنا .. يا فرحتك.(34)

ثم يصف تلك الرغبة الجموح النزقة إلى ذوات العيون الزرقاء:

للأعين الزرقاء كنت جائعا
لضمّة، لنزهة على الجليد
بغي، تقول لي: إلى الجحيم.[35]

الفصل الثالث: موقف الشاعر من خلال المرأة الرمز:

الرمزية مذهب أدبي فلسفي يعبر عن التجارب الأدبية والفلسفية المختلفة بواسطة الرمز أو الإشارة أو التلميح؛ والرمز معناه الإيحاء، أي التعبير غير المباشر عن الأحوال النفسية المستترة التي لا تقوى اللغة على أدائها، أو لا يراد التعبير عنها مباشرة.

فالرمز أداة تعبير عالمية قديمة، واللغة في حد ذاتها مجموعة من المنظومات الرمزية، والرمز يستعمل لغايتين:

الأولى: هي البحث عن الجمالية في طرح الموضوع.

الثانية: هي الكتمان والتعتيم

"فالقصيدة الرمزية تكثيف شديد للمعاني والأفكار والعواطف في لغة مصورة خصبة، تلقي ضفائر ظلال ساجية على الأزمة الداخلية التي يعاني منها الشاعر".[36]

وشاعرنا قبل أن يخوض في غمار الرمز يرى أن الأوربيات يفضلن الجنس الأبيض على الرجل الشرقي الأسمر:

غدا يجيء من تكساس فارسي
دولاره غنائمي، نفائسي

وذخري العظيم
إلى الجحيم
يا أسود الجبين، يا ذميم.[37]

عند ذلك ينهال على المرأة الغربية، ويذمها بأقذع الصفات هي وشعبها وحضارتها:

عناكب عقيمة الرحم
أجيالهم رمم
أحلامهم سدى
صراعهم مع المساء ينتهي إلى سبات
سباتهم يصير في الضحى رؤى وأخيلة
حضارة لقيطة
حقارة أصيلة.[38]

ويشير إلى أن التهالك على الملذات، له تأثير سيء على الفرد والمجتمع، يسْلِمُه في النهاية إلى التخلي عن أرضه وأمواله:

ما زلت أرتاد الدروب مغامرا بالعُمر والأيام والخلجات
أحببت آلاف النساء .. وراعني أن الهوى مستنزف لحياتي.[39]

والدليل على ذلك ما جرّته حياة اللهو والخلاعة على أمراء العرب في الأندلس من ويلات أدّت إلى فقدانها، وضياع سلطانهم وملكهم:

عروبتي في دمك الشهي سارية

إذا ترجعي غدا .. فلتقرئي تاريخنا يا عارية
قصورنا .. رسومنا .. بالمجد في مدريد عامرة
لا تغضبي إن كنتِ فيها يوم ذاك خادم
أو جارية.(40)

يتكرر هذا المشهد في أشعاره المرة تلو الأخرى:

آه .. غنّت مثلما شاءت قيان الخلفاء
ولهونا، ولعبنا، ورحلنا، ورثانا الشعراء
ثم ماذا؟ يا عصور القهر ماذا؟ أينه القصر المضاء؟
سلب التاريخ منا كل شيء، كل مجد العظماء
(طارق) مات وحيدا في سراديب البغايا وسجون الأدنياء
فلمن يشدو كنار العصر؟ ويحي!! ويقول الفصحاء
كل ما يلقى هراء
فكفانا وكفانا من صراخ الببغاء.(41)

وفي إطار التلذذ بذكر المرأة وأوصافها يطلق العديد من صفاتها ولوازمها كالحلي وغيرها على المدينة كصفة العقم:

العقم في مدينتي له جذور
العقم لونها
والعقم ما تلد
والخصب: ما يموت في نضارة الربيع.(42)

أو يصف المدينة بالإجهاض والبغاء:

بأنها مدينتك
قد أجهضت جنينها وأصبحت بغي.[43]

كما يضفي العديد من صفات الأنوثة كالاحتضان والتغزل بالعينين عليها:

عيناك كانتا عزائي الكبير عبر رحلة الضياع
من أجل حبنا أنا كرهت لحظة الوداع
وعدت لك
لأحضنك.[44]

ويتلذذ بذكر الصدر والحضن والغناء في وصفه للقرية:

نثرت النجوم على صدرها
سنابل قمح، سنابل ورد على كتفها
وكنت صبيّا على حضنها
وكانت تغني، كأم تغني لطفل سقيم.[45]

كما يستخدم لفظ الحبيبة والمرأة للدلالة على الحياة:

حبيبتي أنا .. حبيبتي
امرأة مناضلة
امرأة مقاتلة
تجمع الحروف لي .. ترشدني للنور، للطريق
فالدرب معتم
والشرق مظلم

والحب والأشواق جثتان في مفارق العصور.[46]

وكغيره من الشعراء المعاصرين يطلق لفظ المرأة الأم على الأرض، كما استخدمها العديد من الشعراء الآخرين من أمثال السياب والشابي وغيرهما:

يا رفاقي في اشتياقي للرحيل
لمعادٍ، لبلاد الشمس أمي، والنخيل
للوجوه السمر في خضر الحقول
يا رفاقي سأعود.[47]

كما يطلق بعض أجزاء المرأة كالثدي والرحم مثلا للدلالة على الأرض:

ذات عام يا صغيري، كنتَ في رحمي جنينا
كنتَ ظنا في الغيوب
أدبر العام الخصيب
ماتت الشاة الحلوب
فاض در الخير من ثدي الأمهات.[48]

بل أحيانا يخرج عن المألوف في ذكره للمرأة وأحوالها، كأنها في حالة علاقة جنسية، ويريد بذلك الموت:

كيف أصغي
صوت موسيقى، وحبٌّ همجي
ثم آهات لعينة
لبغية

شبقت، عضت ضجيعا، أنشبت
نابا عتيّة
في الضحية
وتعالت صرخات في الدياجي.(49)

وأخيرا .. فإن نظرته إلى المرأة قد تختلف عن نظرة غيره، ومع ذلك فهو يرى أنّ الحبَّ الحقيقي ليس حبّ امرأة، وإنما هو حبُّ الوطن والأمّة:

الحبُّ ليس نظرة .. وليس موعدا مع القبل
الحبُّ: حبُّ أمَّة، وحبُّ موطن يناشد الأمل.(50)

الخاتمة:

من خلال هذه الجولة مع شعر الشاعر التي ارتبط بالمرأة بسبب أو بآخر، يمكن استخلاص أهم النتائج التي أمكن التوصل إليها من خلال دراسة بعض دواوين الشاعر: علي الفزاني، ومن ثم التعرف على آرائه في المرأة، والتي يمكن أن نوجزها في النقاط التالية:

1. الخطاب في أغلب أشعاره موجه إلى المرأة حيث يخاطبها بقوله: سيدتي، رفيقتي، حبيبتي، صديقتي، جميلتي ... إلخ.
2. يحشد ألفاظا جنسية كثيرة تصل إلى درجة الابتذال أحيانا؛ وذلك للحطِّ من قيمة المرأة غير الشريفة، بوصمها بأقذع الصفات وأقبحها، وتتردد هذه الألفاظ وتتكرر بسبب تأثيره النفسي وانفعاله في آن واحد، كلفظ: بغايا، عاهرة، عارية، أثيمة، صديقة المجون ... إلخ.

3. يظهر الاحترام الكبير، ويُكِّنّ كل محبّة وتقدير للمرأة الشريفة، سواء أكانت أمًّا، أم زوجة، أم جارة. ويرى أنه من واجب الرجل حماية المرأة والدفاع عنها.
4. عند ظهور الفساد في بلده، وجب أن ينبه لذلك الخطر ويقاومه بشتى الوسائل، ويبين الأسباب الداعية لهذا الانحراف، والتي في جُلِّها تعود إلى ظلم المجتمع الاجتماعي والاقتصادي للمرأة.
5. المرأة الوضيعة هي شريحة أفرزها المجتمع بدعوى التحضر والمدنية، لذا يسعى الشاعر جاهدا لإبراز أسباب هذا الانحراف والتردي، ويرى أن هذه المرأة وقعت ضحية لهذه الدعوات المضللة من جانب، وتلبية لحاجاتها المادية من جانب آخر.
6. شكل هذا الوضع ازدواجا في نفسية الشاعر؛ ولَّد عنده إحساسا بالغربة، جعله يرتمي في أحضان الدعارة حينًا، متخذها وسيلةً تخرجه من غربته، أو أملا في الخلاص من المتناقضات التي اعتملت في نفسه، أو ليبتعد عنه شبح اليأس القاتل، ولكن ما أن يعود إلى رشده حتى يعلم أن كلَّ ما في العالم مبني على الخداع والنفاق.
7. يرى أن المرأة تُستخدم في العالم الغربي لإبعاد الإنسان عن شؤون وطنه وقضاياه؛ بإغراقه في حياة الدّعارة؛ مما يجعله يتخلى عن وطنه ومالِهِ تجاه هذه المغريات.
8. وصف المرأة وذكر محاسنها وجمالها أمر محبب لدى الشاعر حتى صار يطلق هذه الصفات الأنثوية والجسدية على الوطن والقرية والأرض والحياة والموت أحيانا.

المصادر والهوامش:

(1) الفزاني، علي، الأعمال الشعرية الكاملة، المجموعة الأولى، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس، الطبعة الرابعة 1983م ص: 109.

(2) انظر: ابن عريفة، الطاهر، التعريف بالأدب الليبي، دار الحكمة طرابلس، الطبعة الأولى 1997، ص: 64،63.

(3) ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تصنيف شعراء ليبيون 2017م.

(4) المصدر السابق نفسه.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) التليسي، خليفة محمد، من الحصاد الأول، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة/ ليبيا، الطبعة الأولى 1989م، ص: 207.

(7) انظر: عفيفي، محمد الصادق، الشعر والشعراء في ليبيا، دار روافد المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص:97،96.

(8) الجرم، أحمد محمد، اتجاهات نقد الشعر الليبي الحديث، منشورات جامعة 7 أكتوبر، مصراتة / ليبيا، الطبعة الأولى 2010م، ص: 152.

(9) التليسي، خليفة محمد، من الحصاد الأول، ص: 188.

(10) قصيدة: موت طفل؛ ديوان رحلة الضياع، ص: 30.

11 قصيدة: منديل ممزق، ديوان: رحلة الضياع، ص: 37.

12 قصيدة: الدوار، ديوان: رحلة الضياع، ص: 40،39.

13 قصيدة: طرقة في جدار الصمت، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص: 341.

14 قصيدة: ماريا، ديوان: رحلة الضياع، ص: 19،18.

15 قصيدة: الشعر والنكسة، ديوان: أسفار الحزن المضيئة، ص:168.

16 قصيدة: مذكرات برميثيوس، ديوان: قصائد مهاجرة، ص:248.

([17]) قصيدة: المنبوذ، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص:339.

([18]) قصيدة: الموت فوق المئذنة التي سمي الديوان باسمها، ص: 299،298.

([19]) قصيدة: ماريا، ديوان: رحلة الضياع، ص: 18،17.

([20]) قصيدة: أقبية الجرذان، ديوان: رحلة الضياع، ص: 61.

([21]) قصيدة: أقبية الجرذان، ديوان: رحلة الضياع، ص:61.

([22]) قصيدة: أقبية الجرذان، ديوان: رحلة الضياع، ص:62.

([23]) قصيدة: نهاية قصة، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص:304،303.

([24]) قصيدة: ذات الأربعين، ديوان: أسفار الحزن المضيئة، ص: 122،121.

([25]) قصيدة الألم واللاجدوى، ديوان: قصائد مهاجرة، ص:208،207.

([26]) قصيدة: رؤيا من المعتقل، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص:351.

([27]) قصيدة: بعد الصلب، ديوان: رحلة الضياع، ص:26.

([28]) قصيدة: بعد الصلب، ديوان: رحلة الضياع، ص:27.

([29]) عطية، أحمد محمد، في الأدب الليبي الحديث، دار التضامن، بيروت / لبنان، دار الكتاب العربي طرابلس / ليبيا، د.ط، د.ت.، ص: 32.

([30]) قصيدة: النهر والجراد، ديوان: رحلة الضياع، ص:32،31.

([31]) قصيدة: سيمفونية متمردة، ديوان: أسفار الحزن المضيئة، ص:175.

([32]) قصيدة: فارس ليس من تكساس، ديوان: رحلة الضياع، ص:47.

([33]) قصيدة: النهر والجراد، ديوان: رحلة الضياع، ص:32.

([34]) قصيدة: النهر والجراد، ديوان: رحلة الضياع، ص:32.

([35]) قصيدة: فارس ليس من تكساس، ديوان: رحلة الضياع، ص:47.

([36]) المصري، محمد عبد الغني، والبرازي، محمد محمد الباكير، تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان/ الأردن، 2005م، ص: 38.

([37]) قصيدة: فارس ليس من تكساس، ديوان: رحلة الضياع، ص:48.

([38]) قصيدة: كلمات دافئة، ديوان: رحلة الضياع، ص:56،55.

([39]) قصيدة أسفار الحزن المضيئة المسمى بها الديوان، ص:115.

([40]) قصيدة النهر والجراد، ديوان: رحلة الضياع، ص:33.

([41]) قصيدة: بكائية للعنقاء، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص:390،389.

([42]) قصيدة: كلمات دافئة، ديوان: رحلة الضياع، ص:54.

[43]) قصيدة: كلمات دافئة، ديوان: رحلة الضياع، ص:55.

[44] قصيدة: العقم والكهولة، ديوان: أسفار الحزن المضيئة، ص:118.

[45] قصيدة: الوجه الآخر، ديوان: قصائد مهاجرة، ص:215.

[46] قصيدة: حكاية لأحفادي، ديوان: أسفار الحزن المضيئة، ص:147،146.

[47] قصيدة: أوراق شاعر من الجنوب، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص:293.

[48] قصيدة: أوراق شاعر من الجنوب، ديوان: الموت فوق المئذنة، ص:292.

[49] قصيدة: حرية الموت، ديوان: رحلة الضياع، ص:77.

[50] قصيدة: رسالة من المنفى، ديوان أسفار الحزن المضيئة، ص:158.